قوى معطلة

بقلم الأستاذ إبراهيم اللبان
B. A, M. A, T. D. London
المفتش بوزارة المعارف

هناك ظاهرة اجتماعية مألوفة مأنوسة ولكن فى دائرة خاصة . كلنا يشعر بحركة الارتفاع والانخفاض المستمرة فى قيم الحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية . وقليل منا من يشعر بحركة أخرى مماثلة لها . فالواقع أن ارتفاع القيم وانخفاضها لا يقتصر على حاجاتنا المادية بل يتعداها إلى أشياء أخرى كثيرة، فالصفات الخلقية والفنون والآداب والأعمال الاجتماعية تقوم كما تقوم المواد الغذائية وتختلف قيمها من عصر إلى عصر ومن شعب إلى شعب . ولكل عصر مذهب فى تقدير قيمها وتحديد منزلتها .

ولست أود أن أفيض فى شرح ذلك بل سأكتفى بالإيجاز المبين . فالفنون الجميلة مثلا قد تعاورتها ضروب التقدير فى العصور التاريخية المتعاقبة . فبينا تضعها الشعوب فى عصور جاهليتها فى مرتبة رفيعة إذا بها فى عصور التدين تنزل إلى مكان من الضعة سحيق ثم لا تلبث أن تشرق شمس المدنية فإذا بها تسترد المفقود من قيمتها وعالى منزلتها .

وأسلوب التقدير أو فلسفة الحياة من الدراسات الشائقة المثمرة. وقد كانت هذه الدراسة إلى عهد قريب نظرية بحتة ولكن لم يلبث الأسلوب العلمى المؤسس على التجارب أن دخل هذا المجال أيضا فألقى كثيرا من الضوء على الكثير من مسائله العويصة .

ومن أطرف التجاريب ما قام بها بعض علماء أمريكا إذ اختار عددا كبيرا من المثقفين وأجرى عليهم تجربة قصد بها تحقيق الفرق بين أبناء هذا العصر وبين ما سبقه من عصور فى التقدير الأخلاقى للوصايا العشر (لا تسرق ، لا تكذب ، لا تقتل ، لا تزن الخ) . فقد طلب إلى كل منهم أن يقدم له قائمة يرتب فيها هذه الوصايا حسب خطورتها وجسامتها فى رأيه وعقيدته . وما كان أشد دهشته إذ وجد أن أبناء هذا الجيل يضعون فى المنزلة الأخيرة من الخطورة ما كان آباؤهم يعدونه أقبح الآثام وأشنعها .

والتقدير عملية نفسية بطيئة النشوء والترقى تنشأ تحت تأثير عوامل كثيرة لا نحاول استقصاءها ولكنا مع ذلك لا نرى بأسا من الإشارة إلى أحدها .

أصبح المجتمع وما يمس سعادة المجتمع ورفاهيته بإجماع من الشيوعيين والاشتراكيين والديموقراطيين من أهم الأمور وأعظمها خطورة . فإذا ظهرت جهة نفع اجتماعية كبيرة

فى أحد المرافق علت قيمته وارتفعت مكانته بمقدار ما يستطيع أن يؤدى للمجتمع من فائدة ونفع اقتصادى أو عمرانى . ولعل القوة بضروبها المختلفة من أظهر الأمثلة التى تخطر بالبال فى هذا الصدد .

لم تظفر القوة فى عصر من العصور بمثل ما ظفرت به فى عصرنا هذا من تقدير عال، فقوة الشخصية والقوة العضلية والقوى المادية الكثيرة تتمتع اليوم بتقدير كبير جدا . وهاهى ذى عبادة الأبطال التى يكاها توماس كارليل وظن أنها قد ذهبت إلى غير رجعة قد عادت إلى الظهور ووصلت إلى درجة لم تعرفها الشعوب حتى فى عهود بداوتها وعصور جاهليتها . أما مصادر القوى المادية كمناجم الفحم ومنابع الزيت فقد صارت منذ سنين طويلة مطمح الشعوب وقبلة الأنظار وعاملا من أكبر عوامل السياسة الدولية .

وسبب ذلك واضح ، فقد استكشفت الشعوب فى طموحها الى القوة والمنعة واليسر والرخاء معنى القوة الروحية والمادية وأثرها القوى كوسائل لهذه الغايات القومية العالية وأقول استكشفت لأن هذا فى الواقع استكشاف كبير قد يستغرق بالنسبة لبعض الأمم عشرات السنين بل مئات الأعوام . فتجد المرافق متأخرة مهملة وبجوارها القوى الوفيرة ملغاة معطلة وتمضى على ذلك السنون بل القرون دون أن ينهض من زعماء تلك الشعوب من يرى الصلة الوثيقة بين تلك القوى والمرافق ويشعر بأن صلاح تلك المرافق لا يتطلب غير توجيه هذه القوى اليها وأعمالها فيها . ثم يظهر بغتة من يستكشف هذه الحقيقة ويقدرها قدرها . وإذ ذاك تبدأ تلك الشعوب عصر نهوض تنشط فيه القوى ويكثر الانتاج فيعم العمران وتزدهر الحضارة .

والحق أن ظهور هذا المستكشف من أكبر الأحداث التاريخية فى تاريخ الأمم والشعوب فإنه حادث يفصل عصرين متباينين عصر ركود وتعفن وفساد وعصر نهضة عامة سريعة . وفى التاريخ الحديث على الخصوص أمثلة قوية مقنعة لهذه الظاهرة الاجتماعية المهمة . وليس من الضرورى أن نتطلبها فى غير تاريخ الأمة المصرية الحديث ، فنهضة مصر الحديثة تقدم لنا أروع الأمثلة لذلك . بل إن فى النهضات المعاصرة الان ما يغنينا عن الرجوع الى التاريخ جملة فقد شهدت السنون العشر الأخيرة نهضات قوية استمدت روحها من هذا المبدأ الاجتماعى الخطير .

ومن ثم أصبح استكشاف القوى والإرشاد اليها والدلالة عليها من أكبر الخدمات القومية .

وإنى لأذكر الى اليوم الساعة التى وفقت فيها الى استكشاف منجم غنى مجهول من مناجم القوى فى مصر وأذكر الأسف الشديد الذى أحسست به إذ ذاك حين ذكرت ما تعبئ

هذه القوى لشعب كالشعب المصرى من رفعة ونهوض لو وجدت من ذوى النفوذ من يضن بها أن تذهب فى غير فائدة أو نفع .

حدث ذلك فى أول عام قضيته فى إحدى مناطق رى الحياض فى صعيد مصر . فقد رأيت إذ ذاك رأى العين عشرات الألوف من الشبان الأقوياء ذوى الجلد والبأس منتشرين فى طول البلاد وعرضها . رأيتهم يزرعون الأرض مرة واحدة لمدة أشهر قلائل حتى إذا حل وقت الحصاد وخلت الأرض من الزراعة أصبحوا لا عمل لهم على الإطلاق لمدة لا تقل عن سبعة أشهر أو أكثر . فيضطر بعضهم الى النزوح الى القاهرة أو مدن الوجه البحرى يطوفون فيها يبيعون الفواكه والخضر فى طرقها وأزقتها ويبقى أكثرهم يتحرقون أسى على عمل يقومون به بأقل الأجور وأضألها .

لا أعرف الأصول العلمية لحساب مقادير القوى البشرية ولو كان فى مقدورى لعددت أولئك الشبان وقست مقدار القوة المختزنة فى كل منهم ثم جئت برقم يمثل مقدار تلك القوى الضائعة المعطلة سبعة أشهر كاملة فى هذا العدد الكبير من الشبان الأصحاء الأقوياء لأصور بذلك لذوى السلطة مقدار الخسارة القومية التى منيت بها البلاد من ترك تلك القوى عاطلة .

أستطيع أن أقول بكل ثقة إن القوى البشرية المختزنة فى أقاليم رى الحياض لا تقل على الإطلاق عن القوى المختزنة فى منجم من أكبر مناجم الفحم أو الزيت . وإذا كان العثور على منجم من تلك المناجم يعد من أكبر الخدمات الاقتصادية القومية فلا يقل عن ذلك خطورة العثور على مواطن القوى البشرية الجبارة التواقة الى العمل .

وأعتبر أنى قد ظفرت بأكبر غرض من أغراض مقالتى هذه إذا كان القارئ قد فقد بعد هذا البيان كل تمييز بين منجم من مناجم الزيت وموطن من مواطن القوة البشرية الراكدة وأحس إحساسا قويا بأن القوة هى القوة فى أى شكل ظهرت وأنها مهما تباينت صورها تعنى الانتاج والتقدم والعمران .

ولقد كان محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة من أوائل المستكشفين لهذه الحقيقة العمرانية الكبيرة ومن أكبر المنتفعين بها ، وكان من نتائج ذلك تلك الترع والقنوات التى تشق الأراضى الزراعية فى القطر المصرى شقا وتحمل الماء الى كل شبر من الأرض مهما تباعدت الشقة بينه وبين النيل ، وتلك المصانع المختلفة والقناطر المبنية والمرافق الكثيرة التى كانت أساس الحضارة المصرية الحالية .

ويعتقد كثير من أنصار النظام الدكتاتورى أن من أكبر فضائله تقدير القوى حق قدرها والانتفاع بكل قطرة من قطراتها ذلك الانتفاع الذى نشر العمران وبث الحضارة حيث مواطن الفساد والتعفن ويشيرون إلى استخدام قوة الشباب هناك وأثرها فى تلك النهضة الرائعة .

ويقدرون أن أكبر عمل قام به أولئك الرجال هو فهم معنى القوة وتقديرها واستكشافها فى عضلات الرجال وأعصابهم كما استكشفها غيرهم فى مناجم الفحم ومنابع الزيت ثم إصرارهم بعد ذلك على أن يحشدوها جميعا ، ومن غير تراخ فى إصلاح ما اختل من حالة بلادهم وتعفن من مرافقها .

وإذا كانت الظروف الاجتماعية فى عصر محمد على قد اضطرته الى أساليب خاصة فى تجنيد تلك القوى البشرية واستخدامها فإن من أسعد الظروف أن فى الموقف الحالى ما يغنينا عن اللجوء إلى تلك الوسائل .

ظهر فى طبقات الشعب المختلفة شعور بواجبات جديدة لم تكن معروفة لآبائهم من قبل . ظهر فيهم الشعور بواجب الفرد نحو المجتمع الذى ينتمى اليه و يعتز بنسبته اليه "الواجب الوطنى" ، وعم فيهم الشعور بتأخر البلاد والقلق عليها من جراء ذلك فتولدت فى نفوس الشبان والشيب رغبة جامحة فى أداء واجبهم نحو وطنهم والاشتراك الفعلى فى ترقيته ماديا وأدبيا والسخاء فى سبيل ذلك بالجهود والأموال والأنفس .

وقد زاد هذه الرغبة اشتعالا ما قرءوه وسمعوه عن شبان الدول الديكتاتورية الذين يقدمون أنفسهم للدولة شهورا طويلة تنتفع بقواهم العضلية والعقلية فى ترقية مرافقها واصلاح المختل من شؤونها دون أن يفكروا فى أجر أو مغنم . وأصبح ما وصلت اليه تلك الدول من يسر ورخاء وعزة مبعث تحرق منهم على أن تتاح لهم الفرصة ليصلوا ببلادهم إلى مثل تلك المنزلة الرفيعة .

مثل هذه الحالة النفسية فرصة نادرة المثال لمن يشعر بقيمتها ويفكر فى الانتفاع بها من الزعماء والقادة ، فالواقع أن الشبان فى طول البلاد وعرضها يتأهبون للقيام بأى عمل إصلاحى وفى شوق شديد الى ظهور الزعيم الذى يهيب بهم ثم يحشدهم للعمل البدنى والعقلى الضرورى لسلوك سبيل الإصلاح العمرانى والاجتماعى الذى سلكته بعض الممالك المعاصرة .

ولست أشك فى أن أول زعيم مصرى يتقدم لأداء هذه المهمة ستستولى عليه الدهشة والسرور والبهجة من سرعة تلبية الشبان تلبية مقرونة بالسرور والرغبة القوية . فاستعداد الشبان لسماع هذه الدعوة وتلبيتها وتشوقهم إلى سماع صوت الداعى قد بلغ الآن أشده . ولا أدرى لمن من زعماء هذا البلد وعظمائه سيكتب فخر تحقيق هذه الأمنية القومية العامة . ولكنى أعرف أن الجميع سيغبطونه إذ ذاك على ما حاز من نجاح وتوفيق .

ابراهيم اللبان